المصـــــدر : الرياض
التـــاريخ : 04-07-2007
الصفحـات : 21
العـــدد : 14254
المسلسل : 155

دبلوماسية الملك عبدالله

دور المملكة الإقليمي .. ومستقبل المنطقة؟

عادل بن زيد الطريفي

هذه النجاحات لا تعني أن المهمة انتهت، أو أنه بالإمكان الركون إلى ما تم تحقيقه حالياً، فإحدى مشكلات السياسة هي أن ما يتم بناؤه لعقود قد ينهار في أسابيع، ومنطقة كالشرق الأوسط تمر بمرحلة حرجة للغاية.

المصـــــدر : الرياض
التـــاريخ : 04-07-2007 العـــدد : 14254
الصفحـات : 21 المسلسل : 155

▪ حظيت جولة خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله الأوروبية/العربية باهتمام عالمي كبير، فعلى الرغم من أحداث الأسابيع الثلاثة الماضية، والتي امتلأت بصخب كبير تقريباً في الشرق الأوسط وأوروبا -الاقتتال الداخلي الفلسطيني وانفصال الضفة عن غزة، وتفجير مراقد الصحابة والأئمة في العراق، وموجة التهديدات الإرهابية في لندن - إلا أن غبار العواصف والأحداث لم يحجب أهمية الجولة التي يقوم بها رأس الدبلوماسية السعودية ولم يقلل من زخمها الواضح، بل إن الانتباه لزيارته زاد بسبب ازدياد التوتر، ربما تطلعاً لمواقفه وردات فعله تجاه ما يحدث، ولعل أفضل تعليق استمعت إليه مؤخراً هو تعليق روبرت مالي -مساعد الرئيس بيل كلينتون لشؤون الشرق الأوسط ورئيس مجموعة الأزمات الدولية حالياً- حين قال في معرض جوابه على سؤال عن مستقبل عملية السلام بعد أحداث غزة: لا أملك جواباً الآن ربما سأنتظر كما الآخرين لما سيقوله السعوديون حيال ذلك. الزميلان فرانسوس سيزنك وأفشين مولافي، رحبا في مقالة لهما في مجلة الفورن بولسي - هذا الأسبوع - بالجولة الملكية السعودية مشيدين بمسار الملك عبدالله الإصلاحي داخلياً، والحصافة السياسية التي تجلت في مواقفه الإقليمية خلال السنتين الماضيتين، وبحسب ما يصف الباحثان فإن السعودية على غرار دول المنطقة التي تعصف بها الأزمات حالياً تعيش حالة من الاستقرار الداخلي، وفورانا في الطموحات الاقتصادية والاجتماعية، ولكنها في ذات الوقت تواجه تحديات نوعية ستمتحن جوهرها في المستقبل القريب، ورغم أن التحديات الإقليمية والداخلية عالية إلا أن السعوديين -تحت قيادة عبدالله- يبدون أكثر وثوقاً الآن بأنفسهم مما كانوا عليه في السابق. أما ما لفت انتباهي فهي الرسالة التي وجهها كاتبا المقال لرجال السياسة في الولايات المتحدة وأوروبا: العالم اليوم يحتاج إلى السعودية، ليس لنفطها بل لأهميتها السياسية، إذ أنها الملاذ الأخير لتهدئة التوترات وضمان الاستقرار في شرق أوسط يوشك أن ينفجر على نفسه.

إزاء هذا النهوض الكبير في دور المملكة الإقليمي أصبح الحديث عن العامل السعودي -أو كما يسمى الـ-Saudi Factor لازمة فنية في حديث المحللين والمراقبين لشؤون الشرق الأوسط، فهم لا يتصورون حلاً هنا، أو يضمنون تهدئة هناك ما لم تكن السعودية شريكاً في ذلك. صحيح أن دور السعودية لم يولد اليوم، وأنها كانت على الدوام قوة إقليمية فاعلة إلا أنها اليوم تلعب في مناخ ومرحلة مختلفة عن العقود الماضية، كما أن دورها أو ما يترقبه الآخرون منها بات مختلفاً هو الآخر. الذين يتذكرون الدور السعودي إبان عقد الستينيات، وأثناء الحرب الباردة يدركون ما أقصد، فالحالة السعودية تذكرنا بالدور الذي اضطلعت به كل من فرنسا نهاية الستينيات (أوروبياً) عبر تدعيم الحلف الأطلسي والاحتفاظ بموقف توافقي من الصراع الأمريكي/السوفييتي، واليابان نهاية السبعينات في شرق آسيا - لا سيما في أزمتي تايوان والكوريتين- عبر مشروعاتها للشراكة الاقتصادية في مقابل محادثات وقف التجارب النووية والصواريخ البالستية، وجنوب أفريقيا منتصف التسعينيات (أفريقياً) عبر تأسيس الاتحاد الأفريقي وإقرار وثيقة «الحق في الحماية» الأهمية الهامة. ما يجمع هذه الدول هي أنها أخذت على عاتقها تجاوز الخلافات التاريخية مع جيرانها والدفع نحو آليات استقرار، واجتراح وسائل عمل مشترك لإدارة الأزمات الإقليمية التي عصفت بمناطق نفوذها الإقليمي، وأهم من ذلك هي أنها امتلكت خاصيتين: الأولى، قوة ناعمة (Soft Power) مكنتها من طرح نموذج حداثي جذاب بين جيرانها بحيث أصبحت قيادتها للآخرين لا تقوم على القوة المادية ولا المكونات العسكرية، بل على مهارتها في تطوير ذاتها بشكل لا يؤثر سلباً على الآخرين، ولكنه في ذات الوقت يبهرهم بوصفه نموذج نجاح بإمكانهم هم أن يكونوا مثله. أما الثانية، فهي أنها قدمت بدائل شراكة وخيارات لأطراف النزاع في بيئتها لحضهم على نزع فتيل التوتر، وتقديم الفرص الثانية -كما يقال- لبناء الثقة بينهم.

المملكة في عهد الملك عبدالله مرشحة لهذا لدور، وبإمكانها رغم كل المشكلات الإقليمية الراهنة أن تكون عاملاً فاعلاً في الاستقرار الإقليمي، وحتى أثبت وجهة النظر هذه دعونا نستعرض المشهد الجيوسياسي الراهن:

- بداية، مشكلات المنطقة يمكن حصرها في متغيرين أساسيين: الأول، يتعلق بتغير في موازين القوى لم تشهده المنطقة منذ خمسين عاماً، وهذا الاختلال في الموازين يعني أن لدينا فراغا قويا واستقطابا بين الدول تماماً حول ما يطلق عليه علماء السياسية خطوط التصدع التاريخية (Fault Lines)، والتي تفصل ما بين آسيا الوسطى -إيران وأذربيجان وأفغانستان والعراق- وشبه الجزيرة العربية وسيناء -دول الخليج واليمن ومصر-، والشمال - تركيا وسوريا ولبنان وفلسطين وإسرائيل-. أما المتغير الثاني فيخص تهاوي البنية المدنية للسلطة الحديثة - بكافة مؤسساتها الدستورية والبرلمانية- لصالح اللاعبين الصغار (سابقاً) أو اللانظاميين - الحركات الأصولية وجماعات الإرهاب والقوى

المصـــــدر : الرياض
التـــاريخ : 04-07-2007 العـــدد : 14254
الصفحـات : 21 المسلسل : 155

القبلية والعشائرية-، بإزاء هذا المشهد تتبدى لنا ثلاثة مواقف لدى الدول المعنية، فهناك الذين يدفعون لتغيير الحالة السائدة في ميزان القوى بغرض الحصول على حصة أكبر، أو ربما الهيمنة المطلقة، وهناك الذين يعارضون صعود أي تهديد للأمن الإقليمي المشترك -لاسيما سعي بعض الدول لامتلاك السلاح النووي- ويحبذون وسائل سلمية وتفاوضية لحل الأزمة، ثم هناك الدول غير المعنية بالإطار الإقليمي العام ولكنها مشغولة أكثر بتأثير ما يحدث لدى الجيران على وضعها الداخلي.

- أما لماذا يبدو المشهد هكذا؟ فالإجابة واضحة لأن المنطقة لا تملك حتى اليوم إطارا ثابتا لحفظ الأمن، أو نظاما لإدارة أزماتها الإقليمية، فهي لا تملك حلفاً مثل الأطلسي ولا اتحاداً أفريقياً ولا حتى منظمة تعاون ثابتة كمنظمة التعاون الأوروبية -والتي تضم في عضويتها دولا من خارج الاتحاد الأوروبي-، ولا منظمة تعاون مثل «مجموعة دول الآيشين»، أو منظمة تعاون أمريكا الشمالية -أمريكا والمكسيك وكندا-، أو حتى إطاراً اقتصادياً تعاونياً كذلك الموجود في أمريكيا اللاتينية. المنظمات الدولية والإقليمية التي تشترك فيها دول المنطقة كالأمم المتحدة ومنظمة التعاون الإسلامي ليست مصممة لاحتواء هذه الدول بشكل يضمن تفهمها لقواعد العمل المشترك أو إدارة أزماتها، ولذلك فإن القلق من التداعيات الخطيرة في أي بؤرة توتر -كالعراق أو لبنان- هو أمر طبيعي بالنسبة لكل دول المنطقة بلا استثناء. صحيح أن الحدود واضحة بين الأطراف ولكنها متحركة أيضاً.

- بالنسبة للمملكة فإن متطلبات قيادتها أصبحت إلزامية فهي تواجه خيارات استراتيجية معقدة، وأي تحرك ذي طابع أمني في المنطقة من قبل أي طرف قد يصب في مصلحتها المباشرة أو قد يؤثر على تلك المصالح، ولا خيار ثالث. إذا امتلك أحد جيرانها السلاح النووي أصبحت في موقع تهديد لمصالحها بشكل مباشر ولمصالح حلفائها الإقليميين والدوليين. وهنا تكون المسألة ليست بحثاً عن زعامة بقدر ما هي أخذ بتكليف إلزامي.

إذا، ماذا بوسع المملكة أن تفعل؟ .. حتى الآن تبدو السياسة الخارجية السعودية سائرة في الاتجاه الصحيح، فهم اتبعوا سياسة الباب المفتوح مع الجميع، وأبدوا اهتماماً بكل من يقترب منهم. فهم في الوقت الذي يباشرون محادثات استراتيجية مع نظرائهم الأمريكيين بشكل فصلي يعملون على تنويع مساحة تحركهم الإقليمي والدولي، فهم يوثقون علاقاتهم بالدول الأوروبية الهامة كفرنسا وإسبانيا وألمانيا، كما يعتنون بالدول التي بدأت تبرز أهميتها أوروبياً كبولندا، ويوثقون تعاونهم الاقتصادي والنفطي مع روسيا والصين والهند، وفي الذات الوقت لا يمتنعون عن التحدث مع أحد إذا ما أراد الحوار، وهذا يتجلى في محادثاتهم المباشرة والمهمة مع إيران، واستقبالهم لمسؤولي حزب الله اللبناني وحماس الفلسطينية. وهذا خيار سليم فأنت لا يمكنك إحراز أي تقدم بتجاهل أي طرف في النزاع، ثم إن عدم الحديث مع الأطراف المعنية لا يحقق شيئاً.

ولعل أهم ما حققته الدبلوماسية السعودية مؤخراً هي أنها نجحت في تحويل الحوار حول تعاظم دورها الإقليمي من مصدر تهديد أو تهميش للبعض إلى عنصر تعزيز وتوحيد، فحين تعاظمت طروحات تقسيم المنطقة إلى معسكرين وحاول البعض التقليل من الدور الإقليمي لبعض الدول التاريخية الهامة أبدى السعوديون مهارة في تحوير النقاش وتوجيهه بشكل لا يقلل من أهمية أحد، وأكدوا على اهتمامهم بالجميع. وهذا خيار حصيف، فالسعودية تبحث عن شركاء، والتقليل من أهمية ودور حلفائها الإقليميين لا يزيد من قوتها بل يضعف حلقة التعاون التي تسعى لتوسيعها وتقويتها.

هذه النجاحات لا تعني أن المهمة انتهت، أو أنه بالإمكان الركون إلى ما تم تحقيقه حالياً، فإحدى مشكلات السياسة هي أن ما يتم بناؤه لعقود قد ينهار في أسابيع، ومنطقة كالشرق الأوسط تمر بمرحلة حرجة للغاية، بيد أن الأمور قد تزداد سوءاً على أكثر من صعيد. وهناك أسئلة ملحة تتصدر في كل ساعة كمستقبل الضفة والقطاع، واحتمالية حرب أمريكية-إيرانية، أو تحرك إسرائيلي، أو انفراد إيراني، وهناك أسئلة أخرى تخص مستقبل العراق ما بعد الانسحاب الأمريكي، ومرحلة ما بعد بوش، وغيرها الكثير. إن محاولة رسم استراتيجية للحل والتعاطي اليوم قد تصبح غير ذات فائدة بعد غد لأن المشهد تغير بالكامل بين ليلة وضحاها، ومهما كان التخطيط دقيقاً ومحكماً فإنه ليست ثمة رؤى قادرة على الاستمرار لاسيما في بيئة متصدعة كالشرق الأوسط. بيد أن ذلك لا يعني الاتكال أو الارتجال بل يعني مزيداً من الجهد وسياسات متجددة، ولكن من المهم أن تكون رسالتنا للجميع هي أننا لا نملك كل الحلول، وليست لدينا إجابات معدة مسبقاً لهذه الأسئلة الشائكة لأنه لا توجد لدينا أجندة خاصة، بل نسعى للشراكة في الفهم والإجابة والحل، وعلينا أن لا نخشى من النقد فلأجل القرارات الصعبة يحتاج الناس إلى الزعامات القوية، وكما قال هنري كيسنجر في محاضرة له مؤخراً: (المهم هو أن تقوم بما هو صحيح لديك. أما المصداقية فستأتي لاحقاً).

altoraifi@alriyadh.com